استفحال القوّة ـ تراجُع السّلطة

المشهد الكوني العام وضياع الفردية (راهنا)

د. مصطفى الكيلاني

القُوّة ـ السّلطة

متى تنكشف القوّة؟ وكيف؟ متى، وكيف تحتجب وَرَاء سياج السّلطة أو مجموع السُّلط في أزمنة دون أزمنةٍ أخرى في تاريخ الحكومات وشتّى المؤسّسات؟

إنّ أبرز سمة في هذا العصر استفحال القوّة وتراجع السّلطة.

فليست القوّة ـ في تعريف بدْئيّ ـ رديف السّلطة، وإنّما السّلطة عند تفكيكها تنكشف لنا قوّةً مُنظّمة كأنْ تظهر في أنساق أو ما يُشبه الأنساق تبعاً للظرفيّات التّاريخية والوقائع المجتمعية المختلفة، فتختزن بذلك أنظمة فكريّة يُمثّلها أفرادٌ ومجموعاتٌ، وتُحيل بالضّرورة على أجهزة سياسيّة وإيديولوجيّة ودعائيّة في مختلف الصُّعُد من البلد الواحد إلى الإقليم ومنه إلى القارّة وصولاً إلى العالم بأسره.

إنّ السّؤال الّذي يختصر بكثافة تفاصيل المأزق التّاريخي الّذي يَسِمُ العالم بأسره في هذه الأعوام الأخيرة ـ في رأينا ـ هو سؤال السّلطة والقوّة معاً: ماذا يحدث حينما يختلّ التّوازن في العلاقة بين القوّة من حيث هي بَدْءٌ مرجعٌ، حركةٌ تندفع في أيّ اتّجاهٍ ولا اتّجاه لها؛ وبين السّلطة إذ تصْطَدِم بالوقائع المباشرة وتَتَهيْكَل باستمرار في وهَج التّاريخ الحادث دون أن تنغلق في أبنية مُحدّدة نهائيّة... ذلك أنّها تتأسّس على القوّة وما يُمكن أن يكون نقيضاً لها، على حجّة القوّة وقوّة الحجّة مَعاً، تُهاجم التّخوم المحيطة بها حيناً وتلتفّ حول ذاتها حيناً آخر خَوْفاً من السّقوط كَأَنْ يهتزّ المشهد فجأةً ويتفكّك، فتندفع الحوافّ صوب المركز كَيْ تهدمه وتحتلّ موقعه وتدفعه إلى الهامش لتستمرّ زمناً في السّيطرة شبه الكاملة ثمّ تتراجع لتَرْبُض أو ترقد هناك في انتظار هيمنةٍ قادِمة مُمكِنة؟..

استفحال القوّة: مَوْتٌ يُهدِّد الجميع

هو الموت يتوسّط المشهد العامّ ويتّخذ له أشكالاً مختلفة كالحرب والقتل والتّدمير والاغتصاب والتّهجير ومشاريع الإبادة. إلاّ أنّ تراجع السّلطة واستفحال القوّة في مشهد الموت العامّ لا ينفيان وجودَ أيّ تخطيط أو نظام، وإنّما القوّة مسكونة بالسّلطة دائماً، كما أنّ السّلطة تكتمن القوّة وتمارس بها النّفوذ. وذلك ما يفضح أحياناً الفراغات المستفحلة داخل ملفوظات الديموقراطيّة ذاتها إذْ تتحوّل القوّة فجأةً من الكمون إلى الحركة المباشرة والعنيفة عند «ضرورة» الدّفاع عن الديموقراطيّة من «الأخطار المحدقة بها»؛ وبذلك تتولّد مرحلة سيطرة القوّة على السّلطة باسم الديموقراطيّة ذاتها و«حقوق الإنسان»؛ وتلتقي الملفوظات ونقائضها في مَدّ وجزر من ممارسة الديموقراطيّة تحت لواءِ نفوذ السّلطة إلى إعلان الحرب باستخدام القوّة دون الانفصال كليّاً عن وهم السّلطة والدّفاع عن الدّيموقراطيّة.

إلاّ أنّ استفحال القوّة خَطر يهدّد الجميع بما في ذلك القوّة ذاتها. فلا عجب أن يتوقّف مسارُ القوّة ليملأ بعض الفراغات المحيطة به. وما تنازُل الأقوى عن بعض المواطِن، وقد بلغت به القوّة الأوجَ، إلاّ

علامة القوّة التي أسقطتْ جميعَ القوى المضادّة لها ولم يَتبَقَّ لها إلاّ الانتقال إلى مرحلة الدّمار الذّاتيّ. فينشأ من داخل القوّة وعيُ التدارك خوفاً من سقوط الخصم الكامل وتحوُّل الصّراع إلى المَوَاطن الخلفيّة؛ وتبادر القوّةُ آنذاك بالسّير خطواتٍ إلى الوَراء كي ينقلب، بالقَصْد، مشهدُ العنف المدمِّر للآخر فجأةً إلى رغبة مُلِحّة في التّعايُش. وكما يقتدي المغلوب بالغالب عادة حِرْصاً على البقاء بدافع الوعي أو اللاّوعي، فإنّ النّقيض وقد بلغ به الوهن أقصاه لا يجد أمامه سوى الإذعان لإرادة جلاّده، فيمُدّ لَهُ اليدَ في ذهول الضحيّة. وما كان مستحيلاً في تاريخ الأحزاب المعارضة داخل بلدان العالم اليوم، وخاصّة البلدان الأكثر تخلّفاً وخضوعاً لحكومات دول الشّمال، يُمسي ممكناً؛ والقضيّة الفلسطينيّة تنقلب بعد ترتيبات سريّة إلى تفاوض؛ والأرض تُمْسي، في الإعلام الرّسمي العالمي، ملكاً للجميع، وهي حفنة تراب لِمَنْ هُمْ أصحابُها الشّرعيون في منطق التّاريخ والوجود، وهي امتداد مُدن وقرى وشطآن لمن لا يملك منها إلاّ أصداء دول قديمة وأساطير الأوّلين وخرافة العودة والاستيطان. وإذا كانت السّلطة في أزمنة الكفاح الإنساني المعتادة حركاتِ صعود ونزول، اندفاعاتٍ وتراجعاتٍ، انتصاراتٍ مؤقّتةً وهزائمَ قادمة، تُشارك في النفوذ عادةً بأساليب التّعاقد والانتخاب، فإنّ القوّة في فترات صعودها المأساويّ ضمن أزمنة محدّدة على امتداد التّاريخ الإنسانيّ وتحديداً في هذا المشهد التّاريخيّ الرّاهن الّذي نتهي إليه اليومَ هي النّفي الكامل لأيّ وجه من وجوه الاختلاف. أي أنّ «القتل الأبويّ» يستلزم تمزيق ذوات الأبناء والأفراد والشّعوب والمجموعات الإقليميّة والقاريّة على حَدّ سواء وتحطيم المرايا، كلّ المرايا، كي تُسدّ على الأبناء جميعُ السّبل المؤدّية إلى رؤية الوجوه في حالات غيبوبتها استعداداً للخروج من دوّامة الملامح المتشابهة وإبْصار الوجه الأبويّ الواحد كما يُبَثّ في قنوات الإيصال الإعلاميّ وبرامج التّثقيف الكونيّ المُنَظّم.

لقد كانت السّلطة في العالم تُتيح حتّى الثّمانينات فُرَصَ ممارسة نفوذها لمواجهة النّقيض الأكبر الآخر. ولكنّ «الأمميّة الثّالثة» وقد تقوّض بنيانُها استحالت إلى محيط تابع للنّظام الرّأسماليّ العالميّ، فاستعادت «الأبوّة» الحديثةُ واحديّة وجهها بعد أن تفسّخت ملامح الوجه النّاشئ منذ ثورة أكتوبر ١٩١٧ وعادت إلى ملامح الوجه القديم.

سقوط مختلف الإيديولوجيّات في زمن استفحال القوّة

فلا عجب اليوم في ظلّ هذه الاختلالات العميقة أن تستيقظ مختلفُ الإيديولوجيّات دفعةً واحدة حينما تَفَكّك الإطارُ الّذي يصل بينها.

تتصاعد القوّةُ العسكريةُ وتتصاعد القوّةُ في شكليها الإعلاميّ والسّياسي؛ وإذا المشهدُ واحدٌ وإن تعدّدت الوضعيّات والأساليب: هو مشهدُ الطّائرات المغيرة باسم الدّفاع عن الأمن العالميّ تُسقِط آلافَ الأطفال والشّيوخ والنساء في حربٍ عسكريّين ضدّ مدنيّين أبرياء؛ وهو الآلة العسكريّة تحتلُّ بَلَداً بتعلّة إقامة الأمن فيه؛ وهو الحظر يُفرَضُ على شعب بأكمله لمعاقبة النّظام الحاكم داخل البلد؛ وهو التستُّر على مَا يحدث من قطع لرؤوس الأطفال وإبادة جماعيّة وتدمير مساكن واغتصاب فتيات وقَتْل شيوخ وتشويه جُثث[1]؛ وهو التّفاوُض وإمضاء معاهدة استسلام يُفْرَضان بالقوّة الصامتة على قيادة فلسطينيّة تقاذفتها العواصِمُ والحكومات وأربكتها خيْباتُ التنقُّل في ليل المتاهة.

الاستقطاب الواحد ومستقبل استفحال القوّة

تلك هي بعضُ سمات التّاريخ الّذي ننتمي إليه اليوم: استقطاب واحد للقوّة يُتيح لها فُرَصَ التّنامي في الاتّجاه المعاكس لِكُلّ القِوى الحادثة والممكِنة؛ وحربٌ اقتصاديّة مدمّرة بدأت تكتسح مواطن عديدة في العالم وستنتج عنها اهتزازات داخل البلدان الفقيرة؛ وأمراض اجتماعيّة كالبطالة والجريمة والتشرّد أخذت تهدّد أمن كثير من البلدان الغنيّة.

إلاّ أنّ الاستقطاب الواحد المؤقّت لا يعني اليوم انتفاءَ أيّ مظهر للقوّة أو القُوى المُضَادّة داخل النّظام الرّأسماليّ ذاته، وذلك باستقراء الخلافات العميقة بين الولايات المتّحدة الأمريكيّة وبين المجموعة الغربيّة أو في التخوم المجاورة لهذا الفضاء المركزيّ أو ما تبقّى من النّقيض الآخر التقليديّ للنّظام الرّأسماليّ أي الطّرَف الاشتراكي مُمَثّلاً في الصّين الشّعبية بكثافتها السكّانيّة وواقع نموّها وآفاق هذا النموّ الممكِنة مُسْتَقْبَلاً.

من أبرز سمات تاريخ البلدان الاشتراكية المتهدِّمة فجائعيّةً قبرُ جميع المكاسِب الثّوريّة وقبر ما سبقها من تضحيات شعبية.

ومن المبالغة في القول الجزمُ على أساس قراءة تروتسكيّة لتاريخ الأنظمة الاشتراكيّة، بما في ذلك تاريخ الثّورة الصينية وما عقبها من تأسيس مجتمعيّ، بأنّ الرّأسماليّة هي النّظام الوحيد الّذي حكم العالمَ؛ وبأنّ ما سُمّيَ «اشتراكيّة» ليس إلاّ «رأسماليّة دولة» تَتَقَنّع بإيديولوجيا دكتاتوريّة البروليتاريا.

ولعلَّ من أبرز سمات التّاريخ الفجائعيّ للبلدان الاشتراكيّة المتهدّمة اليوم استئصالَ جميع المكاسب الثوريّة وقبْرَ ما سبقها من تضحيات شعبيّة جسام، في حين تحافظ كثير من البلدان الرأسماليّة على تاريخها خارج دوّامة الخلافات الإيديولوجيّة وتصون الذّاكرة فيها من

(١) نُشير إلى ما حَدَث مؤخّراً في قرية ستوبني دُو من إبادة جماعيّة قامت بها القُوّاتُ الكرواتيّة ضدّ المسلمين في البوسنة الوسطى داخل ما كان يُسَمّى بيوغوسلافيا.

التَعَطُّل والتّلاشي. وإذا كانت الديموقراطيّة الغائبة أو الكسيحة في ظلّ تلك الأنظمة قبل سقوطها هي سبب الانهيار بعد تراكُمات الأخطاء نتيجةً لتفاقُم البيروقراطيّة السّياسيّة والإداريّة، فإنّها اليوم الشّعار والسّلاح اللّذان يُستَخدَمان لضرب الأمن الاجتماعيّ والثّقافي ونسف كيان الدّولة والمجتمع وتحويله إلى حُطام تابع لنفوذ الآخر والتآمر على الوطن والديموقراطيّة ذاتها.

ولا يخفى عن الأنظار ما تمثّله اليابانُ في المجال الآسيويّ من قوّة ليست، كألمانيا، منسجمة تماماً مع مركز الاستقطاب الرّأسماليّ؛ ولكنّ تبعات الماضي والحرب العالميّة الثّانية تمنع البنيان راهناً ومنذ الأربعينات من الاندفاع بحريّة كاملة خارج أطواق الآخر المُتَغَلِّب. كما قد تبدو قُوى أخرى جهويّة في مناطق كثيرة من العالم قادرة مستقبلاً على الإسهام في إعادة التّوازن الكونيّ وتنظيم القوّة كي تستعيد مواضعها الخلفيّة وتدع للسّلطة حَقّ ممارسة نفوذها بالقوانين والمؤسّسات ومنطق الحوار والتّفاوض على أساس مبادئ كبرى تُلزم أخلاقيّاً احترامَ القويّ للضّعيف؛ إذ بالقوّة المُضادّة يمكن وقف انتشار نفوذ القوّة وإنشاء نظام حماية عالميّ جديد.

ولكنّ الحرب الاقتصاديّة الّتي أخذت تكتسح العالم راهناً، وشَبَحَ استفحال الظّاهرة الاستعماريّة الجديدة بالهيمنة على مصادر الغذاء والطّاقة والإعلام، يُؤكّدان صعوبةَ المعارك القادمة وينذران بأعوام قاسية في مستوى العلاقات بين الدّول والأزمات الاقتصاديّة والهزّات الاجتماعيّة المنتظرَة داخل مُعْظَم البلدان في العالم. وما حَدَثَ منذ حرب الخليج وانهيار الاتّحاد السّوفياتي ليس إلّا بوادر مرحلة مخاضٍ صعبٍ تصل بين حِقْبَتَيْن في تاريخنا المعاصر.

تحرير فرديّة الإنسان شرطٌ أوّل للخروج من المأزق الرّاهن

كُلَّما استفحلت أزمة الإنسان توجَّب إعلان تحرير الفرديّة من الضياع. ذلك أنّ القوّة والسّلطة موضوع الإنسان والفرديّة المهدّدة دائماً بالتّلاشي في حركة الارتداد إلى ماضي النّفوذ الجمعيّ. وإذا كان هذا النفوذ في عصور التاريخ المنقضية يُمَارَسُ تحت لواء الدّين في مراحله وألوانه المختلفة، فإنّه اليوم ـ وقد تداعت شتّى الإيديولوجيّات ـ لم يُبْقِ من التّجريدات والقداسات إلّا البراغماتيّة تتّخذ لها أشكالاً سياسيّة وإعلاميّة وعلميّة تكنولوجيّة عديدة؛ وكأنّنا بذلك نقتحم عصر تَدْجين الإنسان وفسْخ الذّات الفرديّة إلى عقود طويلة. وَمَا على ثقافة الاختلاف اليوم إلّا أن تجزّئ الأسئلة وتعيد النّظر في مُعْظَم المساءلات قبل أن يشمل طوفانُ «الدين الجديد»[٢] كلّ البلدان والمؤسّسات والعقول.

لم يعد مجال الاخْتلاف اليوم كائناً بين العِلْم وما هو خارج عن العلم، أو بين الحريّة ونقيضها، أو بين حقوق الإنسان وما هو مُعَادٍ لتلكَ الحقوق، أو بين الاستغلال بأصنافه المختلفة وما هو نقيض الاستغلال، أو بين الدغمائيّة في شكلها العَقَدي أو السياسيّ والفكر التَعَـدُّديّ. بل تحوّل الصّراع إلى داخل ماهيّة الإنسان ـ الفرد، وانكشف للجميع تيّار «قَتْل الإنسان» ومحاصرة فرديّته بلغة الحريّة ذاتها و«حقوق الإنسان» والديموقراطية والاختلاف... كلّ ذلك في مشهد كونيّ عامّ انتقلت فيه القوّةُ من مرابضها الخلفيّة إلى واجهة الممارسة السّياسيّة والحضاريّة بأساليب الهيمنة العسكريّة والسّيطرة شبه الكاملة على كينونة الفرد.

«البراغماتيّة» التي تعتمد «المصلحة» و«الإعلام» أشدّ خطراً على فرديّة الإنسان من الإيديولوجيّات التي سقطتْ!

ولا يمكن أن تُرَدَّ القُوَّةُ إلى مواطنها الخلفيّة لإيقاف زحفها على مراكز السّلطة في كلّ المواضع إلّا بقوّة مُضادَّة من طبيعة مختلفة هي القوّة المعرفيّة التي تتأسّس حَتْماً على أخلاقٍ جديدة تُواصل نهجَ الأخلاق التي دعتْ في عصور تاريخيّة منقضية إلى ضمان حريّة الفرد وحقّه الكامل في الاختلاف تفكيراً وتعبيراً.. وقَدْ تَبَيّن لنا في تاريخنا المعاصر أنْ ليس للفكر عند استفحال الأزمات إلّا الالتجاء إلى مراجعة أخلاقيّة تعيد للإنسان (أفراداً وشعوباً) حُضوره المتقدّم وتحوّل قيمه إلى سلطة عُليا تمنع كُلَّ السُّلَط من الزيغ أو الارتداد، فيتأكّد مفهوم آخر للثّورة خارج مشهديّة الدم والحرائق والجثث وآلاف المشرَّدين والجائعين.

كيف يستعيد المجتمع الكونيّ نفوذَ السّلطة أو قوّة السّلطة ويتحرّر من سلطة القوّة؟

كيف تتجاوز ثقافةُ الاختلاف مأزقَ الأسئلة المتكرّرة بِمُساءَلَات جديدة وآفاقٍ معرفيّة مختلفة؟

كيف يُحَرَّرُ الإنسان الفردُ من واقع سياسة التّدجين ويُدْفَع إلى الحياة خارج أطواق البراغماتيّة في ممارسة نفوذ القوّة؟

كيف نعيد للفرد مواقعَه الرّياديّةَ ونخلّص المجتمعات الراهنة من غلبةَ النّفوذ التّكنوقراطيّ بإيديولوجيا «عِلْمويّة»؟ وما هي خصوصيّات المأزق الرّاهن في المجتمعات العربيّة؟

أسئلة عديدة مدارُها استفحال القوّة وتراجع السّلطة وقَد تُتَاحُ لنا فَرَصُ الكتابة فيها...

إنْ وَجَدْنا الأمان في التّعميم؛ فقد نصطدم بنفوذ القوّة ذاتها عند التّجزيء، وما ندعو إليه يتجاوز جهودَ قَلَمٍ واحد وصوتٍ واحد.

(تونس)

(٢) «الدّين الجديد» الّذي أخَذَ يكتسح العالم وأسقط جميعَ الإيديولوجيّات وسيحوّل المعتقدات القديمة إلى طواهر مُتَحَفيّة في العقود القادمة هو «البراغماتيّة» التي تعتمد «المصلحيّة» مذهباً و«الإعلاميّة» ومختلف الاكتشافات العلميّة والاختراعات التكنولوجيّة وسائل لاكتساح العالم وامتلاكه. وهو «دين» أشدّ دوغماتيّة من الأديان السّابقة، وأخطاره أشدّ على ما أسميناه فرديّة الإنسان